حدث معي في الطائرة

شيئان اثنان أحبهما منذ الطفولة: العصافير والطائرة، وما أزال أحبهما، ربما أكثر مما كنت أحبهما في الطفولة، وربما ثمة شيء ثالث أحبه وهو الطعام الذي يقدم في الطائرة، فهو دائماً لذيذ ومختلف، ربما لأنه يأتي بعد ساعات من الانتظار، أو ربما لأنه يأتيك جاهزاً ساخناً بل حاراً وأنت على ارتفاع عشرين ألف قدم في الفضاء، فتتناول طعامك الشهي وأنت تستمتع بالفضاء والتحليق.

ولحبي العصافير والطائرات قصة، فقد نشأت في دار عربية مفتوحة، ذات فناء واسع، تتوسطه بركة ماء، في وسطها نافورة، يتقافز منها الماء رذاذاً ناعماً ليرسم دائماً قوس قزح، وتظللها شجرة توت كبيرة، كنت أحاول تطويق جذعها بيدي الاثنتين فلا أستطيع، وطالما تسلقت أغصانها لأضع على أحد الفروع عصفوراً صغيراً، كان يحاول الطيران فسقط، أصحو على أصوات العصافير وهي تزقزق، وكم تعجبني زقزقتها مساء، قبيل الغروب، كأنها تودع النهار، كانت تزقزق جماعات جماعات، وعندما ينضج التوت تؤم الشجرة أنواع من العصافير صغيرة ملونة، لها

تغريد جميل، كم كنت أتمنى على أبي لو أمسكت واحداً، فيقول لي: «يا ولدي هذا بلبل حر، هو صغير جداً وناعم، لن تستطيع الإمساك به، يكفي أن تستمتع بتغريده، وتتركه يستمتع هو بحريته، حتى لو أمسكت به ووضعته في قفص فلن يعيش، سيمتنع عن الطعام، وسيضرب القضبان برأسه وجناحيه، حتى يموت».

وكانت دارنا تقع قريباً من المطار، والطائرات تمر فوق الدار وهي متجهة إلى المطار لتحط فيه، أراقبها، كلما سمعت صوتها أسرعت إلى فناء الدار، أرفع رأسي إلى السماء أنتظر مرورها فوقي، ظلها يغطيني، أحلم بالسفر فيها، كم حلمت وأنا طفل بعصافير ملونة أمسكها، أداعب ريشها، وما زلت وأنا في الخمسين أرى في أحلامي عصافير ملونة، أحياناً أرى في الحلم أني أحلق، أقفز فوق درج العمارة، لا أهبط عليه درجة أو درجتين، بل أقفز عشر درجات، عشرين درجة، أحلق فوق الدرج، وأنا أحلق أضغط بقدمي، أدفع بهما الهواء، فأقفز، أتابع التحليق، في حالات كثيرة كنت أحس في الحلم أني استيقظت وأن الحلم انتهى وأني الآن أحلّق فوق الدرج حقيقة، وأني أسبح في الهواء، وأن ما أقوم به ليس حلماً، وإنما هو واقع، وأنهض، وإذا هو حلم أيضا.

هكذا ملأت العصافير حياتي، ولكن من المؤسف أن بعض الأولاد الأشقياء كانوا يقصدون الزقاق حيث تقع دارنا،

وكانوا يوجهون بنادقهم إلى فروع الشجرة المطلة على الزقاق، ليصطادوا، وفي كثير من الحالات تقع العصافير جريحة في فناء الدار، وأسرع إلى مداواتها، في حين تخرج جدتي العجوز لتؤنب الأولاد وتطردهم.

ولا أنسى مرة زارني فيها ابن خالتي قاسم، فرآني أداوي جناح عصفور، فخطفه من بين يدي وركض به، وهو يقول: سأشويه وآكله، وأنا أرجوه أن يشفق عليه، وما كان منه إلا أن فصل رأسه عن جسده ببساطة وهو يقهقه، ثم رمى به إلى السطح وهو يقول ضاحكاً: «القطة جائعة، فلتأكله القطة»، وكم كنت أكره القطط، لا لشيء، إلا لأنها تصطاد العصافير.

وثمة موقف لا أنساه، وحتى الآن لست على يقين، أهو حلم أم حقيقة، هل رأيته في صورة، أم هل قرأته في كتاب، ولكنه راسخ في وجداني، فقد أيقظتني أمي ذات صباح وهي تقول: انهض، انظر الثلج، غمر البيوت والأسطحة، ولا أعرف إن كنت نهضت فوراً أو غطيت رأسي باللحاف، المهم أنني سمعت صوت نقر هادئ على النافذة، فرأيت عصفورة تنقر الزجاج، وأسرعت ففتحت النافذة، ودخلت إلى حيث الأمان والدفء والطعام، ولكن لا أعرف بعد ذلك، هل كان ذلك حلماً أم حقيقة؟ وفي درس الرسم حاولت أن أرسم نافذة وعصفورة تنقر الزجاج، ولكني لم أكن بارعاً في

الرسم، فمزقت الصورة، ولكنها ما تزال راسخة في الوجدان.

ثم حرمت من العصافير، فقد كبرت وتزوجت وسكنت في دار في بناء طابقي، وهي دار صغيرة مغلقة، لا تطل إلا على بناء آخر يسد عليها الأفق، فلا سماء ولا عصافير، وكان ابني يلح علي يطلب مني أن اشتري له قفصاً فيه عصفور، وكنت أود ذلك ولكن لا أحب حبس العصافير في قفص، كنت أفكر في شراء عصفور وتركه يعيش معنا في الشقة الصغيرة، يحلق في فضائها المغلق، وذات يوم خرجت من البيت متأخراً، وكنت على عجلة من أمري، وأخذت أعدو على الرصيف كي أبلغ الشارع الرئيسي لأستوقف سيارة أجرة تقلني إلى عملي، فقد دعانا المدير إلى اجتماع عام، وإذ بي أرى على الرصيف أمامي عصفوراً مكسور الجناح يحاول الطيران فلا يستطيع، اقتربت منه فلم يطر، وضعت يدي عليه وأمسكت به، وعدت إلى البيت، طار ولدي كالعصفور من الفرح، وأخذت أداوي جناحه، سقيته الماء بفمي وطلبت من زوجتي أن تعنى به، وانطلقت إلى عملي، عاش العصفور في بيتنا بضعة أيام، امتلأ البيت به حياة وحركة، فرح به ولدي، شفي جناح العصفور، أخذ يحلق في فضاء الغرف، أراد ولدي استبقاءه معنا في الشقة، ولكن رآه يتجه نحو النافذة يحلق نحوها يطير إليها يطلب الفضاء

الرحب والحرية ولكنه يصطدم بمنقاره ورأسه بالزجاج فيسقط، يكاد يتحطم، فأشفق عليه ولدي وقال لي: «لا يمكن أن يعيش مثلنا في شقة مغلقة»، وفتحنا النافذة وأطلقناه، اكتأب ولدي قليلاً، وكنت أتمنى فعلاً لو بقي بيننا، أحسست بفقده، وأخذت كلما رأيت عصفوراً في السماء أظنه هو.

ولقد سافرت مرات كثيرة بالطائرة، وكدت أمل من السفر، ولكن لم أمل من ركوب الطائرة، أفكر كثيراً قبل السفر وأقلق، ولكن ما إن أتخذ مقعدي من الطائرة حتى أنسى كل شيء، ومرة كنت راجعاً إلى الوطن من شمال أوربة، فتوقفت بي الطائرة في مطار أثينا، وصعد إلى الطائرة عدد غير قليل من الركاب، وكل منهم يحمل حقائب كثيرة على عادة معظم المسافرين، لكن فوجئت براكب يدخل الطائرة يحمل قفصاً مغطى بقماش أبيض رقيق، ومن حسن حظي كان مقعده قريباً من مقعدي، وقد رأيته يضع القفص على كرسي خاص إلى جوار النافذة، ويقعد هو إلى جواره، وبعد أن أقلعت الطائرة وأخذت مسارها في الفضاء، رفع الغطاء عن القفص، وإذا فيه كناري أصفر جميل، وما هي إلا برهة حتى أخذ في التغريد، والوفرة من الريش في عنقه تقبّ، ثم تهمد، وهو يرسل التغريد صفيراً متصلاً ثم يقطعه تقطيعاً، ثم يرجّع

الصوت، ويشدو في هدوء يكاد ينقطع، ثم يعلو كالنشيد، ثم يستقر على شقشقات كنقرات العود، ثم يرسله هادئاً، ثم يستقر على تغريد، ليصمت من غير أن ينقطع النفس، ودفعني الفضول ونهضت إلى جوار الرجل صاحب البلبل، ولكن من المؤسف أنه كان لا يعرف غير اليونانية، ولم أتمكن من محاورته، فرجعت إلى مقعدي بعد أن ملأت عيني من الكناري، ولكن ما إن استقر بي المقام في مقعدي، حتى رأيت البلبل يرف بجناحيه في فضاء الطائرة يحلق فوق الرؤوس، يرف، يعلو يدنو، والركاب يتأملونه ذاهلين، وكل منهم يتمنى لو حط البلبل على رأسه أو على كتفه، ولكنه كان يلف و يدور فرحاً بالحرية، ولعله كان يشعر بمتعة التحليق في فضاء طائرة تحلق به في الفضاء، فإذا هو في أجواز السماء على ارتفاع عشرين ألف قدم، وهو ارتفاع ما كان يحلم بمثله، ثم فوجئت به يقترب مني، يدنو، يرف أمام وجهي، ثم يحط على كتفي الأيمن، وألتفت إليه، ويأخذ في التغريد، وأذهل؟ كأنه كان يقول لي شيئاً، لماذا خصني أنا من بين الركاب جميعاً؟ هل هو روح أبي؟ أو جدي؟ المصريون القدامى كانوا يتصورون الروح في هيئة طائر، وأسمع صوت ربان الطائرة وهو يعلن عبر مكبرات الصوت طالباً من الركاب ربط الأحزمة، وأفتح عيني، ألتفت وإذ لا بلبل على كتفي، ولكن ثمة راكب يبدو

أنه يوناني أخذ يغطي قفصاً إلى جواره بقماش أبيض شفاف ليغيب عن أنظاري بلبل أصفر كان يحط على كتفي.

ثم وقع معي حادث في الطائرة لا يمكن أن أنساه، قد لا يشاركني القارئ في أهميته، ولكنه بالنسبة إليَّ يمثل فجيعة، فقد كنت في إحدى أسفاري إلى أوربة، وكنت من طول الانتظار متعباً جداً وجائعاً، وكنت أنتظر وجبة الطعام بفارغ الصبر، ودخلت المضيفة، تقود أمامها عربة الطعام، وكنت فضولياً مثلي مثل كل الركاب الذين يتلهفون دائماً لمعرفة ما سيقدم لهم، ولما ناولت الطبق إلى الراكب الذي إلى جواري، مددت عيني لأرى ما في طبقه، حتى قبل أن أفتح طبقي، وإذ رأيت فيه أشياء صغيرة قليت على ما يبدو بالزيت، ويتناول الرجل واحدة بالشوكة، وأنا أرقبه ذاهلاً عن طبقي، ويقضم بشراهة، ثم يلتفت إلى صبية إلى جواره، هي على الأغلب زوجته ليقول لها: «رائعة، لذيذة، رائعة جداً»، لا أعرف ما الذي انتابني، كأنني شللت، لم أفتح طبقي، سألته، وأنا أمد عيني إلى طبقه: «ما هذه؟» ويجيبني وهو يمضغ بشراهة: «لذيذة جداً، شهية، ألا تحبها، عصافير صغيرة قليت بالزيت».

المؤلف في سطور

- من مواليد مدينة حلب عام ١٩٤٩.
- تخرّج في قسم اللغة العربية بجامعة حلب عام ١٩٧٢.
- حاز دبلوم الدراسات العليا من جامعة دمشق عام ١٩٧٣.
- عمل مدرساً في وزارة التربية من عام ١٩٧٤ إلى عام ١٩٧٧.
- نال الماجستير في الأدب العربي الحديث من جامعة حلب عام ١٩٨١.
- حاز الدكتوراه في الأدب العربي الحديث من جامعة دمشق عام ١٩٨٤.
- عين مدرساً لمادة الأدب العربي الحديث بجامعة حلب عام١٩٨٤.
- عضو اتحاد الكتاب العرب بدمشق منذ عام ١٩٨٣.
- عضو هيئة تحرير جريدة الأسبوع الأدبي من عام ١٩٩٧إلى عام ٢٠٠٠.
- عضو نادي التمثيل العربي منذ عام ١٩٨٨.
- عضو جمعية العاديات بحلب منذ عام ١٩٩٨.

- ❖ عضو اتحاد الصحفيين منذ عام ١٩٩٩.
- ❖ عمل أستاذاً معاراً إلى جامعة سبها في القطر الليبي من عام ١٩٩٠ إلى عام١٩٩٤.
- ❖ حاز جائزة المركزالاستشاري لتعليم اللغة اليابانية في حلب عن القصة القصيرة عام١٩٩٥
- ❖ حاز جائزة البتاني في الرقة عن القصة القصيرة عام ١٩٩٧.
- ❖ حاز جائزة جريدة الثورة بدمشق عن القصة القصيرة عام ١٩٩٨.
- ❖ حاز جائزة الباسل للإبداع الفكري بمدينة حلب عام ١٩٩٨.
- ❖ رئيس قسم اللغة العربية من عام ١٩٩٨ إلى عام ٢٠٠٠.
- ❖ أمين سر اتحاد الكتاب العرب ـــ فرع حلب منذ عام ٢٠٠١.
- ❖ كرمته جمعية النقد الأدبي في اتحاد الكتاب العرب بدمشق بالتعاون مع فرع اتحاد الكتاب العرب في حلب عام ٢٠٠١.
- ❖ أستاذ الأدب العربي الحديث بجامعة حلب.

المؤلفات المنشورة
للدكتور أحمد زياد محبِّك

- **حركة التأليف المسرحي في سورية**، (دراسة) اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨٢، ٤٣٠ صفحة، قطع كبير
- **من الحكايات الشعبية**، (مجموعة حكايات شعبية) وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٣، ١٩٤ صفحة، قطع وسط.
- **يوم لرجل واحد**، (مجموعة قصص قصيرة) اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨٦، ٢٠٠ صفحة، قطع وسط
- **المسرحية التاريخية في المسرح العربي المعاصر**، (دراسة) دار طلاس، دمشق، ١٩٨٩، ٣٧٤ صفحة، قطع كبير
- **حجارة أرضنا**، (مجموعة قصص قصيرة) مطبعة عكرمة، دمشق، ١٩٨٩، ١٠٩ صفحات، قطع صغير
- **الكوبرا تصنع العسل**، (رواية) دار القلم العربي، حلب، ١٩٩٦، ١٤٥ صفحة، قطع كبير
- **بدر الزمان**، (مسرحية) دار القلم العربي، حلب، ١٩٩٦، ١٠٤ صفحات، قطع كبير
- **حلم الأجفان المطبقة**، (مجموعة قصص) اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٦، ٣٣٥ صفحة، قطع وسط

❖ **عريشة الياسمين**، (مجموعة قصص) دار القلم العربي، حلب، ١٩٩٦، ٢٥٦ صفحة، قطع وسط

❖ **دراسات في المسرحية العربية**، (دراسة) مطبوعات جامعة حلب، حلب، ١٩٩٧، ١٨٥ صفحة، قطع كبير

❖ **حكايات شعبية** (نصوص ودراسة) اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٩، ٧٧٠ صفحة، قطع وسط

❖ **دروب الشعر العربي الحديث** (دراسة) مطبوعات جامعة حلب، حلب ٢٠٠٠، ٢٤٠ صفحة، قطع كبير.

❖ **لأنكِ معي** (مجموعة قصص قصيرة جداً) دار شمأل، دمشق، ٢٠٠٠، ١٨٠ صفحة، قطع صفير.

❖ **طعم العصافير** (مجموعة قصص قصيرة) دار القلم العربي، حلب، ٢٠٠١، ١١٢ صفحة، قطع وسط.

❖ **قصائد مقارنة** (دراسة ونصوص) مطبوعات جامعة حلب، حلب،٢٠٠١، ١٢٥ صفحة، قطع كبير.

❖ **دراسات نقدية من الأسطورة إلى القصة القصيرة** (دراسة) منشورات دار علاء الدين، دمشق، ٢٠٠١، ٣٠٠ صفحة، قطع كبير.

❖ **العودة إلى البحر**(مجموعة قصص قصيرة) اتحاد الكتاب العرب، دمشق،٢٠٠١، ١٥٣صفحة، قطع وسط.

- **الرحيل من أجل مها** (مجموعة قصص قصيرة) اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٣، ٢٤٧صفحة، قطع وسط.
- **انكسارات**، (مجموعة مقالات) دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٤، ٤٤٠ صفحة، قطع كبير.